

الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحمنِ لَأَوند

برنامج عودة إلى الماضي



الحلقة التاسعة عشرة

مقدمة البرنامج..

مؤثرات..

جاسم: أين وصلت يا محمود؟ " فترة صمت " ألا تسمعي؟

محمود: "وكانه ينتبه من غفلته" ماذا؟ أتحدثني يا جاسم؟

جاسم: لقد سألتك: أين وصلت؟

محمود: أتنقل في دنيا الناس.

جاسم: ألم تقف عند محطة بالذات؟

محمود: الحقيقة أنني ما أزال أشعر بالعزلة.

جاسم: العزلة يا عزيزي شيء لا يأتي من الخارج ولكنه موقف نفسي يعزل صاحبه عن الآخرين.

محمود: وكيف تريدني أن أتحرر منه؟

جاسم: بأن تغير ما في نفسك عن الناس.

محمود: الحقيقة أنني لا أفهم عنك ما تقول.

جاسم: اسمع يا محمود.. هل رأيت إلى هذه الدنيا العريضة الحافلة بثقافة المغريات وأنواع السلع التي أبدع الإنسان في اختراعها؟ رأيت إلى الأساليب التي اخترعت لإشباع الشهوات والرغبات.. هذه كلها لا تحقق الشبع وحسب ولكنها تثير في الوقت نفسه رغبات جديدة وتدفع الخيال إلى البحث عن فنون أخرى من الملهيات على أمل أن يجد فيها صاحب الخيال راحة نفسه وطمأنينة قلبه. لكن الواقع أن الخيال يتعب ويعجز عن اختراع الجديد من ألوان اللذة بينما الإحساس بالجوع إلى الجديد يزداد شدة وقوة.

محمود: وماذا يعني هذا كله؟

جاسم: إنه يعني أن البحث عن السعادة لا يكون بالطريقة التي جاءتنا بها حضارة الاستهلاك.. تلك الحضارة التي تلح علينا بأن نشترى ونشترى وأن نكدس المشتريات في بيوتنا دون توقف.

محمود: فأين هي السعادة إذاً؟

جاسم: إنها الإحساس بالرضى.. والشعور بالحب الخالص الذي يشدنا إلى كل إنسان.. بل إلى كل شيء من أشياء الكون والطبيعة والحياة..

محمود: ما أزال أمام المعميات.. لقد كنت أظن دائماً أن الثراء الكبير هو الذي يحقق لي السعادة.. وإني عن طريقه أبلغ الشاطئء الأيمن.. لكن الواقع أن قلقاً خفياً دفيناً يضطرم في نفسي فلا أدري كيف أحجز بيني وبينه.

جاسم: إن الذين يأكل الملل أعصابهم هم الذين فقدوا الإيمان بقضية يعملون من أجلها ويعتقدون أنها تستحق التضحية بكل ما يملكون فهم يكافحون أبداً في سبيلها..

محمود: وماذا تقصد بالقضية؟

جاسم: صحيح أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنا في محكم تنزيله: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " .. وصحيح أيضاً أنه عز وجل لم يخلقنا عبثاً وأنا إليه راجعون كما قال لنا في محكم تنزيله، ولكن الصحيح أيضاً أن الإيمان الذي هدينا إليه وورزقتنا به العناية الإلهية هو صخرة النجاة التي نحس معها بالطمأنينة والأمن.. فنحن لا نؤمن بالله عز وجل استجابة لأمر السماء وحسب ولكننا نؤمن لأن الإيمان هو وحده الذي يمنحنا مبرراً للعمل ويفتح لنا طريقاً إلى الكفاح وبملاً حياتنا بالعواطف النبيلة والإرادة الخيرة. إن الإيمان هو القضية التي نعمل من أجلها والتي نعتقد أنها تستحق التضحية بكل ما نملك فنحن نكافح أبداً في سبيلها..

محمود: ولكنني مؤمن يا جاسم.. فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله كماؤمن بالملائكة والكتب السماوية واليوم الآخر والقضاء والقدر.. ومع ذلك فأنا أعيش في قلق مقيم..

جاسم: لكن الإيمان يا محمود ليس كلمات نقولها وحسب بل هو تلك اللطيفة النورانية التي تنساب في كل جارحة من جوارحنا ثم تنعكس على كل من حولنا من الناس وعلى كل ما حولنا من الأشياء والنبات والحيوان. إنها تلك التي نتعرف بها إلى لمسات اليد الإلهية في كواكب السماء في تعاقب الليل والنهار وتعاقب الحياة والموت والتي نشهدها في نعم الله التي لا تحصى في شعورنا بأننا قادرون على أن نفعل الجميل ونصنع الخير ونساعد الضعيف وعلى أن نبادل الآخرين فيوضاً من المحبة. إنها تلك التي تتفجر بها قلوبنا رقة ورحمة وأملاً في أن يكون صباح اليوم التالي حافلاً بالجديد من العمل الصالح.

محمود: ألا تزيدني يا جاسم؟

جاسم: حسن جداً يا عزيزي.. هل رأيت إلى يتيم تمرر يدك الرحمة فوق رأسه فتشعره بها بالعاطفة الكريمة؟ وهل رأيت إلى الابتسامة التي تواجهه بها الوجه المتجهم الغضوب؟ وهل رأيت إلى السماحة التي تتعامل بها مع الآخرين وأنت القادر عمن ظلمك وتحسن وأنت القوي عمن أساء إليك ثم تشعر من بعد أنك سيد نفسك تتصرف بها كما تشاء.. إذا رأيت إلى هذا كله وتأملت فيه فأنت تتمتع بالإيمان الذي يجعلك في رعيال الصديقين والشهداء والصالحين.

محمود: أريد ما يؤكد هذه المعاني من كتاب الله يا جاسم.

جاسم: بكل سرور.. فكتاب الله حافل بهذه المعاني. اسمع قوله تبارك وتعالى في سورة الفرقان: " وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا " .. ثم تعال نتلو قوله عز وجل في سورة آل عمران " وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " ..

محمود: صدق الله العظيم.. لكنني أشعر يا جاسم أن كثيرين ممن حولي ينظرون إلى ما عندي من المال نظرة حاشدة بالغيرة محتقنة بالحسد.. إذا أعطيتهم تكالبوا على العطاء تكالب العطاش في مفازة من الصحراء على الماء القراح في نهم عجيب مزعج..

جاسم: قد يكون هذا صحيحاً بل هو صحيح جداً لكنك أنت المسؤول.

محمود: ولماذا أنا المسؤول؟

جاسم: ذلك لأنك لم تستطع بعد أن تضع في عطاياك شعاعات الحب الذي حدثتك عنه.

محمود: وكيف أستطيع أن أضع هذه الشعاعات في العطاء..

جاسم: السبيل الى ذلك يا محمود هو في أن تستبدل الكراهية والخوف بالشفقة والرفقة.. أن تحاول فهم الضعيف عند الناس.. اذكر الموقف الإنساني العظيم الذي وقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخرجته بنو ثقيف من ديارهم وطارده عبيدهم ورموه بالحجارة. قال وقد لجأ إلى بستان من البساتين متوجهاً إلى ربه: " اللهم إني ضعيف فقوي.. اللهم إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي.. اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " ..

محمود: وهل تريدني أن أرتفع إلى هذا المستوى العالي من التضحية والإيثار؟ ولنفترض أنني حاولت ذلك فهل يسعني أن أفعل ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

جاسم: كلا يا محمود.. ليس المطلوب منا أن نفعل ما فعله عليه السلام لكن المطلوب أن نفتدي به ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.. أوليس أن الله سبحانه وتعالى يقول لنا في محكم تنزيله: " فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ " ..؟

محمود: الحقيقة يا جاسم أن فيما تقوله سحراً من السحر الحلال.. لكن كيف أبدأ..

جاسم: ابدأ كما تشاء وحيث تشاء.

محمود: هل أتنازل عن ثروتي كلها؟

جاسم: أبدأ.. ليس هذا هو المطلوب.. بل المطلوب أن تعطي في حدود الحفاظ على عملك والسهر على تجارتك.. وليكن عطاؤك عطاء غير ممنون.. ثم ليكن دون ضجة وبعيداً عن وجاهات الإعلان ومظاهر المسابقات الاجتماعية.. إن الصدقات هي وحدها التي تقربك من قلوب الناس.. ولا أقصد بالصدقات مالاً تعطيه وحسب بل هناك ما لا يقل عنه أهمية وخطراً.

محمود: مثل ماذا يا جاسم؟

جاسم: لنسمع ما رواه الإمام مسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " كُلُّ سَلَامَةٍ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطَّلَعَ فِيهِ الشَّمْسُ، قَالَ: تَعْدِلُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، قَالَ: وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَثُمَّ يَطُّ الْأَدَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ " ..

محمود: أعتقد أنني استوعبت جوانب الموضوع كلها..

جاسم: يبقى أن ألفت نظرك إلى أمرين اثنين.

محمود: وما هما يا جاسم؟

جاسم: الأمر الأول: أن يصيب خيرك الأقربين من الناس تبدأ بهم فالأقربون أولى بالمعروف.

محمود: إلا هذا؟ والله لم أجد في الأقارب غير العقارب.

جاسم: إذأ فأنت فاشل في الامتحان من أول الطريق. كلا يا محمود إنك حين تعجز عن كسب أقبائك وتمتنع عن يستحق المساعدة منهم فأنت في غير الطريق التي رسمت لك من قبل الله عز وجل.

محمود: لكن المحاولة صعبة..

جاسم: لا تنسى أن العظام كفؤها العظماء.

محمود: أفعل إن شاء الله.. لكن ما هو الأمر الثاني؟

جاسم: هناك يا أخي محمود آية من آيات الله في الأرض نستمتع بها ونشهد آثارها في كل يوم ومع ذلك فنحن لا نقدرها حق قدرها.

محمود: وما هي هذه الآية؟

جاسم: إنها آية الفضل والرحمة التي يجدها المرء في الزوجة الصالحة. وقد أفصح عنها كتاب الله عز وجل في قوله: " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)

محمود: أي أنك تنصحي بالزواج!

جاسم: بل أمرك به إن سمحت لي باستعمال هذه الكلمة.. فليس أحوج إلى الزوجة من الرجل والعكس بالعكس.. ذلك لأن الزواج هو نعمة من نعم الله التي يتحقق بها الأمن المتبادل وتتوفر الثقة المتبادلة ويرتبط فيه الرجل والمرأة بالفضل والرحمة.. إنك لن تجد في الأزومات قلباً أعطف عليك من قلب الزوجة الصالحة.. كما لن تجد أكرم لك من البنين والبنات إذا كانوا ثمرة الزواج الناجح.. هكذا يا عزيزي تخرج من عزلتك وتجد لنفسك عملاً صالحاً تواجه به ربك وقد حملت كتابك بيمينك.. موسيقى نهاية..